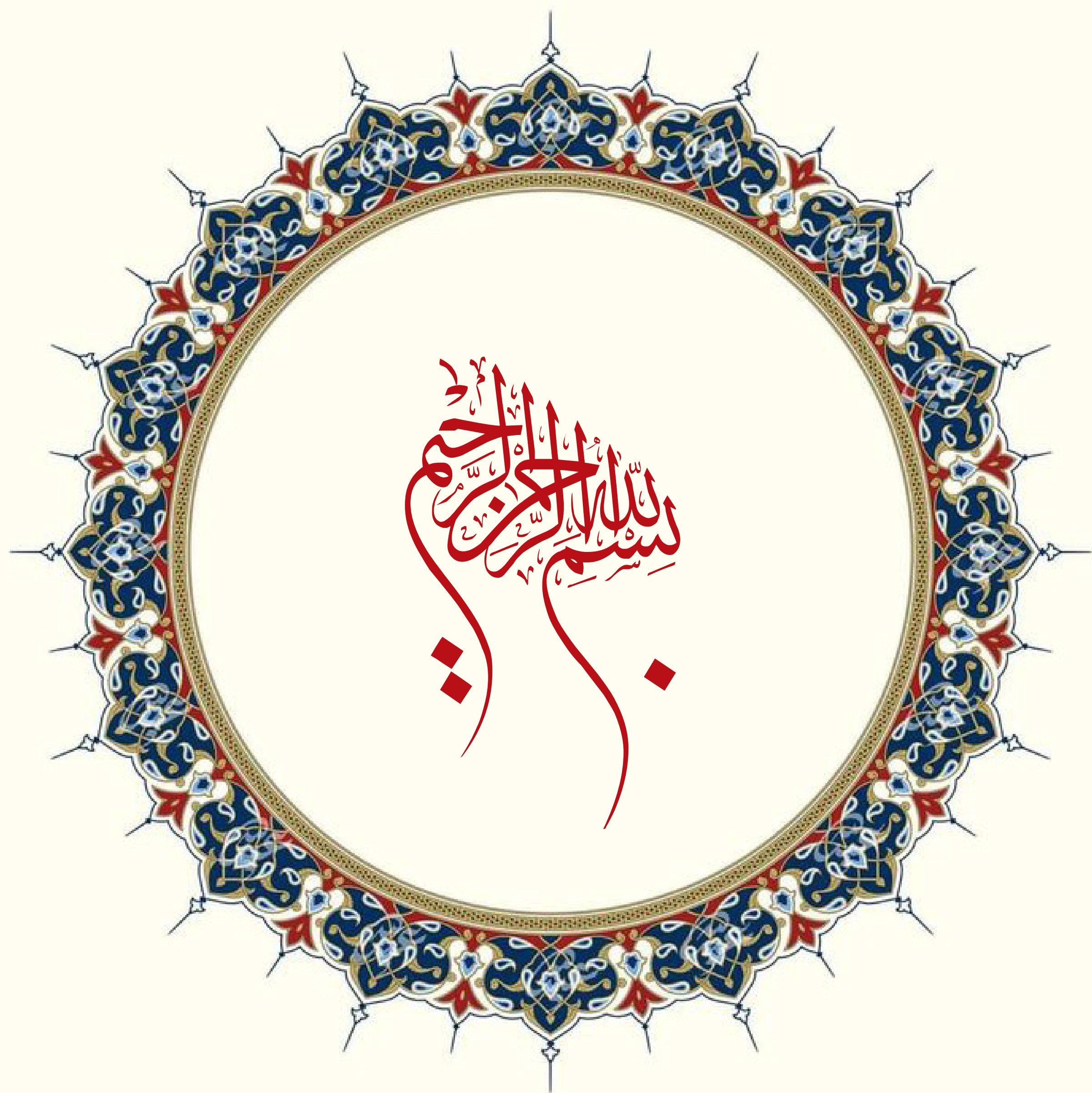
مدارج البصيرة

كيف تصنع النور في زمن الالتباس

نايل الشريف


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة إلى القارئ

۞ عزيزي القارئ ...

ليس هـذا الكتـاب دعوةً إلـى مزيد مـن المعلومـات، ولا محاولة لإضافـة فكـرة جديدة إلـى رفوف المعرفـة، بل هو وقفـة تأمل في معنى أعمـق يحتاجـه الإنسـان في كل زمان، ويشـتد الاحتياج إليـه حين تكثر الأصوات وتختلط الطرق ... وهو البصيرة.

فكـم من إنسـان يعـرف الحق لكنـه لا يثبُـت عليه، وكم مـن قارئٍ للنصوص تمر به المعاني فلا تتحول في قلبه إلى نورٍ يهديه في حياته.

والفـرق في الغالـب ليس في كثرة مـا نعلم، بل في مقـدار النور الذي يستقر في القلب.

۞ هذا الكتاب محاولة للبحث عن هذا النور في منابعه الأصيلة:

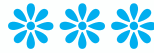
في القرآن، وفي هدي الوحي، وفي تأملات العلماء الذين تحدثوا عن مـدارج البصيـرة وكيف ترتقي في القلب حتى تتحـول إلى رؤية واضحة للحياة.

وقد كُتب هـذا الكتاب بروح التأمل أكثر مـن روح الجدل، وبقصد الإيقـاظ أكثـر من قصد الإقنـاع؛ لأن البصيـرة في حقيقتها ليسـت فكرة

تُفرض على العقل، بل نورٌ يوقظه الله في القلب حين يتعرض العبد للوحي ويتأمله.

فإن وجدت في هذه الصفحات ما يفتح لك بابًا من الفهم، أو يوقظ في قلبك سؤالًا جديدًا، أو يزيدك قربًا من نور القرآن ... فقد تحقق المقصود.

والله نسأل أن يجعل هذه الكلمات سببًا في زيادة البصيرة، وأن يرزقنا وإياك نورًا نهتدي به في زمن كثرت فيه الظلمات



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدِّمة

الحمد لله الذي جعل الوحي نورًا يهدي القلوب، وجعل البصيرة حياةً للإنسان في زمن الالتباس، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي قال الله عنه: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [سورة يوسف: آية ١٠٨].

أحيانًا يا أحبة.. يقف الإنسان أمام حدثٍ أو شبهةٍ أو موقفٍ من مواقف الحياة، فيتساءل: لماذا يرى الناس الشيء نفسه بطرق مختلفة تمامًا؟

ولماذا يضطرب بعضهم، بينما يمضي آخرون مطمئنين كأن الطريق واضح أمامهم؟

الفرق يا أحبة في كثير من الأحيان ليس في كثرة ما يسمعه الإنسان من معلومات، ولا في كثرة ما يقرأ من كتب ... الفرق في شيء أعمق من ذلك كله.

الفرق في نورٍ يقذفه الله في القلب.

نور يجعل الإنسان يرى الحق واضحًا وإن كثرت الأصوات حوله، ويرى الطريق مستقيمًا وإن امتلأت الطرق بالالتباس.

ولهذا جاء هذا الوصف العجيب في القرآن، حين قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [سورة يوسف: آية ١٠٨].

فكأن الطريق إلى الله لا يقوم على مجرد المعرفة، بل على بصيرة تُضيء للقلب الطريق.

ولهذا سيكون حديثنا في هذا الكتاب حول معنى عظيم من معاني الهداية: البصيرة.

كيف يتكوّن هذا النور؟

وكيف يرتقي الإنسان في مدارجه حتى يصبح الوحي عنده نورًا يكشف الطريق، لا مجرد كلمات تُتلى أو معلومات تُحفظ؟



مقدمة: أثر الرؤية على القلب

دعونا نبدأ من هذا الحديث النبوي العجيب

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنِّي أرى ما لا ترَوْن، وأَسمعُ ما لا تَسمَعون ...»[1].

كلمة قصيرة ... لكنها تفتح بابًا واسعًا.

لم يقل: أعلم ما لا تعلمون.

قال: أرى. **الرؤية غير المعرفة.**

المعرفة قد تُحفظ في الذهن، أما الرؤية فتسكن القلب.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يعيش الغيب كخبرٍ يُتلى، بل كحقيقةٍ حاضرة.

ولذلك قال بعدها: «لَوْ تَعْلَمُونَ ما أعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، ولَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ...»[2].

ليس لأن الضحك حرام، ولا لأن الفرح مذموم، بل لأن الرؤية تغيّر ترتيب الحياة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (٢١٥١٦) باختلاف يسير

(٢) صحيح البخاري (٦٤٨٥)

حين تنكشف الحقيقة، يصغر ما كان كبيرًا، ويكبر ما كان صغيرًا.

لذلك يا أحبة في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ...»[1].

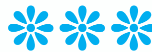
يقول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه والأهوال التي تقع عند النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة».

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كان رأى كل ذلك مشاهدة وتحقيقًا ولذلك كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متواصل الأحزان قليل الضحك جُله التبسم».

السؤال المهم لنا

ونحن ... نؤمن بالجنة والنار، نؤمن بالحساب، نؤمن بالقبر، **لكن لماذا لا تغيّر هذه المعاني حياتنا كما غيّرت حياته** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

هنا تبدأ تظهر أهمية منزلة عظيمة من منازل السير إلى الله ... منزلة البصيرة.



(١) صحيح البخاري (٦٤٨٥)

دعونا نبدأ من كتاب مدارج السالكين: ومنزلة البصيرة

منزلة: البصيرة ... شرطُ السفر إلى الله

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه مدارج السالكين أن منازل السير إلى الله تبدأ بأربع منازل عظيمة: **اليقظة والبصيرة والفكرة والعزم.**

وجعلها أساس البناء، وعليها مدار السفر كله.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لم يزل الناس مذ خلقوا مسافرين، وليس لهم حط لرحالهم إلا في الجنة دار النعيم أو في النار دار الجحيم)

ثم يضرب ابن القيم مثالًا بديعًا يصور المشهد:

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ الْمُقِيمَ فِي وَطَنِهِ لَا يَتَأَتَّى مِنْهُ السَّفَرُ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ مِنْ غَفْلَتِهِ عَنِ السَّفَرِ، ثُمَّ يَتَبَصَّرَ فِي أَمْرِ سَفَرِهِ وَخَطَرِهِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَنْفَعَةِ لَهُ وَالْمَصْلَحَةِ، ثُمَّ يُفَكِّرَ فِي أُهْبَةِ السَّفَرِ وَالتَّزَوُّدِ وَإِعْدَادِ عُدَّتِهِ، ثُمَّ يَعْزِمَ عَلَيْهِ).

فالبصيرة إذن هي شرط من شروط أصل الانطلاق.

تأملوا موضع البصيرة

* **اليقظة توقظك**، لكنها لا تكشف لك الطريق.
* **الفكرة ترتب لك الزاد**، لكنها لا تمنحك الرؤية.
* **العزم يدفعك**، لكن قد يدفعك في اتجاهٍ خاطئ إن لم تُبصر.

* **أما البصيرة ... فهي أن ترى.**

- أن ترى إلى أين تسير.
- أن ترى خطورة الطريق.
- أن ترى ما ينتظرك في نهايته.

ليست كثرة معلومات، ولا ثقافة شرعية، ولا مجرد حفظ نصوص.

البصيرة أن يتحول الغيب من خبرٍ يُسمع إلى حقيقةٍ تُعايش.

ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البصيرة نور يقذفه الله في القلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهد رأي عين.

الخلاصة:

فإذا كانت اليقظة بداية السفر، فالبصيرة هي العين التي تُبصر الطريق.

أيها الكرام: نحن نريد السير إلى الله. نريد الثبات. نريد الطمأنينة. نريد حسن الخاتمة.

* **لكن لماذا** نضطرب عند أول صدمة؟
* **ولماذا** تتزلزل قراراتنا عند أول فتنة؟
* **ولماذا** يغيب الوحي عند لحظة الامتحان؟

وهنا تبدأ رحلتنا عبر عدة محطات...

المحطة الأولى

لماذا نحتاج البصيرة

۞ مشاهد الاضطراب ... ولماذا نفتقد البصيرة؟

قبل أن نتكلم عن البصيرة، علينا أن نسأل سؤالًا موجعًا:

* لماذا يضطرب الناس وهم يقرؤون القرآن؟

* لماذا يحفظ أحدهم الآية ... ثم ينهار عند أول اختبار؟

الجواب: المشكلة ليست في النص.

المشكلة في النور الذي يُبصر به النص.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البصيرة نور يقذفه الله في القلب ...

إذن حين يغيب النور ... يظهر الاضطراب.

دعنا نرى الاضطراب في مشاهد نعيشها يوميًا.

۞ مشهد الصدمة

* مكالمة في منتصف الليل.

* خبر مرض. فقد وظيفة. موت قريب.

* في لحظة واحدة يتحول القلب إلى ارتجاف.

* يتساءل: لماذا؟ لماذا الآن؟ لماذا أنا؟

هذا المشهد حصل في تاريخ الصحابة،

يوم وفاة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ – وهو عمر – اضطرب حتى أنكر الخبر، حتى جاء أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٤٤].

قال عمر: كأنني أسمعها لأول مرة.

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «لقد بصّر أبو بكر الناس الهدى وعرفهم الحق الذي عليهم وخرجوا به يتلون ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٤٤].

وفي رواية عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزلها حتى تلاها أبوبكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فتلقاها منه الناس فما يسمع بشر إلا يتلوها».

الآية لم تتغير. الذي تغيّر هو الرؤية.

هنا نفهم أن البصيرة ليست حفظ النص، بل حضور النص عند الصدمة.

۞ مشهد المقارنة

زميل نجح. جار اغتنى. طالب تفوق.

وأنت في مكانك.

تبدأ الأسئلة الخفية:

* **لماذا هو؟**

* **ماذا ينقصني؟**

* **هل أنا أقل قيمة؟**

تتسلل المقارنة ... ثم الحسد ... ثم الاعتراض.

هنا تحتاج البصيرة

وتتذكر قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ اللهَ لَيَحْمي عَبدَه المُؤمِنَ مِن الدُّنيا، وهو يُحِبُّه كما تَحْمون مَريضَكُم مِن الطَّعامِ والشَّرابِ تَخافونه عليه»**[(١)].

تأملوا.. المريض لا يفهم المنع لكن الطبيب يفهم

فهل كل ما حرمته خسارة؟ أم أن بعض الحرمان رعاية؟

هنا ولدت الحاجة إلى البصيرة

---

(١) أخرجه الترمذي بعد حديث (٢٠٣٦) بنحوه، وأحمد (٢٣٦٢٢) واللفظ له

مشهد الشبهة

مقطع ينتشر. مقالة مثيرة. سؤال ملغّم.

القلب يهتز لا لأنه لا يعرف، بل لأنه لم يُحصّن ببصيرة.

وهنا سؤال: لماذا تهز الشبهة بعض الناس؟

* لأن معرفتهم بالله لم تكن راسخة بما يكفي لتثبتهم عند الشبهة
* ولأنهم لم يتعلموا حدود العقل
* ولأنهم لم يفهموا حكمة التشريع

لذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البصيرة في الأمر والنهي (هي تجريد النص عن المعارضة بهوى أو تأويل).

هو لا يقول: لا تسأل بل يقول: لا تعارض والفرق كبير

الإنسان قد يعرف الحكم، لكن إن لم يُبصر حكمة الآمر، سيبحث عن مخرج.

البصيرة تجعل النص ميزانًا، لا موضوعًا للنقاش العاطفي.

مشهد الشهوة

نزاع مالي. فرصة كسب سريع. خصومة قانونية.

الإنسان قد يأخذ حقًا ليس له، ويبرر لنفسه أنه "أذكى".

كيف عالج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه المشكلة؟

ففي الصحيحين من حديث أم سلمة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال: **«إنَّما أنَا بَشَرٌ، وإنَّه يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضًا أنْ يَكونَ أبْلَغَ مِن بَعْضٍ، أقْضِي له بذلكَ وأَحْسِبُ أنَّه صَادِقٌ، فمَن قَضَيْتُ له بحَقِّ مُسْلِمٍ فإنَّما هي قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أوْ لِيَدَعْهَا»**[1].

وفي رواية: **«فإنَّما أقطَعُ له قِطعةً مِن النّارِ، يأتي بها إِسْطامًا في عُنقِهِ يومَ القيامةِ»**[2].

والإسطام: الحديدة التي تسعر بها النار، فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما: حقي لأخي.

في لحظة، حوّل القرار من مكسب أرضي إلى مشهد أخروي.

هذه بصيرة.

---

(١) صحيح البخاري (٧١٨٥).

(٢) الألباني، التعليقات الرضية (٣/ ١٧٨) إسناده حسن

البصيرة لا تمنع الرغبة، بل تكشف العاقبة.

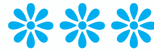
الخلاصة في هذه المحطة

في كل مشهد من هذه المشاهد، المشكلة لم تكن نقص علم.

بل كان السؤال:

هل ترى اللحظة وحدها؟ أم ترى معها الله ... والحكمة ... والمآل؟

هنا تبدأ البصيرة



المحطة الثانية

(كيف يصنع القرآن البصيرة؟ من الخبر إلى المشهد)

إذا تأملت في أسلوب القرآن الكريم، ستجد أمرًا عجيبًا:

القرآن لا يكتفي أن يخبرك عن الغيب، بل يُدخلك في المشهد.

۞ وهنا سؤال: ما الفرق بين أن تعرف ... وأن ترى؟

كثير من الناس يعرفون. يعرفون أن هناك آخرة. ويعرفون أن هناك حسابًا.

ويعرفون أن الله حكيم. لكن المعرفة وحدها لا تغيّر السلوك.

القرآن لا يريدك أن تسمع خبرًا، بل أن تعيش مشهدًا.

الخبر يُفهم. أما المشهد ... فيُرى. والذي يَرى ... يتغيّر

على سبيل المثال: تأملوا طلب إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يقول الله تعالى:
﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٦٠].

لاحظ الدقة:

لم يقل: "ليؤمن قلبي". قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ﴾.

إبراهيم مؤمن. لكنه يطلب انتقالًا: من الإيمان بالخبر إلى مشاهدة الكيفية.

من التصديق ... إلى الاطمئنان.

وهنا نعلم:

البصيرة ليست مجرد تصديق. بل حضور وتصور ومشاهدة.

إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يعلم أن الله يحيي الموتى، لكن لما رأى الطيور تتفرق ثم تجتمع، تحول العلم إلى مشهد.

وهذا هو الفرق بين من يحفظ الآخرة ... ومن يراها

أيها الأحبة:

إبراهيم لم يطلب إيمانًا جديدًا، بل طلب مشهدًا يملأ القلب نورًا.

وهنا يأتي تعريف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البصيرة: (نور في القلب يُبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار ...)

وكأن هذا النور يا كرام إذا اشتعل ... رأى الإنسان ما وراء الحجب.

لذلك يا أحبة نجد القرآن يعطينا تفاصيل

لا يقول فقط: سيُحاسَب الناس.

بل يقول:

* ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [سورة الحج: آية ٢]

* ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [سورة النازعات: آية ٣٦]

* ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [سورة الفجر: آية ٢٣]

لاحظ الأفعال. ليست تقريرية ... بل تصويرية. كأنك هناك.

لماذا هذا الأسلوب؟

لأن الإيمان بالخبر لا يكفي لصناعة الثبات.

كثير من الناس يؤمنون بالآخرة، لكن قراراتهم اليومية تُتخذ وكأنها بعيدة.

البصيرة يا أحبة هي أن يقترب الغيب من وعيك.

وهنا نفهم كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهد رؤية عين).

"كأنه يشاهد" – هذه ليست مبالغة بل مقام.

وهنا يأتي حديث حنظلة

قال: (نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين ...)

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لم يزدهم معلومات، بل كان يُحيي المشهد.**

فإذا خرجوا وعافسوا الدنيا، تراجع الحضور.

إذن البصيرة ليست حالة دائمة بلا جهد، بل تحتاج تجديد تذكر.

۞ وهنا سؤال مهم: كيف يربّي القرآن البصيرة عمليًا؟

الجواب: بكثرة المشاهد الأخروية

تأملوا: حين يذكر الله صفوة أنبيائه، لا يبدأ بأسمائهم فقط، بل بوصفٍ يكشف سرَّ بنائهم: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾ [سورة ص: آية ٤٥].

أولي الأيدي ... قوة في العمل، ثبات في العبادة، صبر في الطريق.

والأبصار ... بصيرة نافذة، فقه في الدين، رؤية صافية للحق.

إذا ..قوةٌ في السلوك، ووضوحٌ في الرؤية.

لكن السؤال:

من أين جاءت هذه القوة؟ ومن أين جاءت هذه البصيرة؟

يأتي الجواب مباشرة: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾ [سورة ص: آية ٤٦]

كأن الآية تقول: سرُّ الأيدي والأبصار ... ذكرى الدار.

ليست "معرفة الدار"، ولا "الإيمان بالدار"، بل ذكرى الدار.

الذكرى ليست معلومة في الذهن، بل حضورٌ في القلب.

شيءٌ لا يفارقك.

حين تتحرك ... تتذكر.

حين تختار ... تتذكر.

حين تُغضَب ... تتذكر.

حين تُفتن ... تتذكر.

ولهذا قال بعض السلف في تفسير الآية: جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم همٌّ غيرها.

وقال آخرون: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا.

لماذا؟ لأن من امتلأ قلبه بذكرى الدار، لم يعد للدنيا نفس الثقل.

البصيرة ليست كثرة جدل، ولا مهارة في الرد، ولا حفظ نصوص فقط.

البصيرة أن ترى الدنيا على حقيقتها ... مرحلة.

وترى الآخرة على حقيقتها ... دار.

ولهذا جاء بعدها مباشرة: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾

[سورة ص: آية ٤٧]

كأن الاصطفاء ثمرة.

مـن صفا قلبـه بذكرى الدار، قويـت يداه في الطاعـة، ونفذ بصره في الحق، واصطفاه الله.

هنا يتبين لك سرٌّ عجيب في تربية القرآن للبصيرة:

القـرآن يكثـر من مشـاهد الآخـرة، لا ليخيفـك فقط، بـل ليجعلها حاضرة في قلبك.

فإذا حضرت الدار، استقام النظر.

وإذا استقام النظر، استقام العمل.

وهكذا ترتبط:

الأيدي ... بالأبصار ... بذكرى الدار

دعونا نأخذ أمثلة حول تكرار المشـهد في أسـماء القيامة وسنتحدث عن هذا المعنى في نقاط:

۞ أولاً: لماذا لا يكتفي القرآن باسم واحد للقيامة؟

لـو كان المقصود مجـرد الإخبار عن حدث قـادم، لكفى أن يقول: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾.

لكن القرآن لا يريد أن يخبرك فقط.

بل يريد أن يعيد تشكيل وعيك.

فالقيامة ليست حدثًا واحدًا ... بل تجربة وجودية كاملة.

والإنسان لا يُربَّى على رؤية كاملة عبر كلمة واحدة.

۞ ثانيًا: كل اسم يكشف بُعدًا نفسيًا مختلفًا

■ ١) يوم القيامة

من القيام. القيام يعني الوقوف.

هذا الاسم يربّي فيك الشعور بالمثول.

أنك ستُوقَف. لا هروب. لا جلوس. لا استرخاء.

تأملوا في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [سورة المطففين: آية ٦]

تصوّروا المشهد:

القبور التي كانت ساكنة صامتة تتحرك فجأة ... الأرض تتشقق ...

والناس يقومون منها قيامًا واحدًا.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥﴾ [سورة الروم: آية ٢٥].

البصيرة هنا: أن تعيش الوقوف قبل أن تقف.

■ ٢) يوم الدين

الدين هو الجزاء.

ليس مجرد حساب، بل ردّ الحقوق.

هذا الاسم يربي فيك عدالة النهاية.

أن كل كلمة ... ستعود.

كل نظرة ... ستعود.

كل ظلم ... سيعود.

تأملوا قال الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾

[سورة الكهف: آية ٤٩].

تصور المشهد:

كتاب الأعمال يوضع ... والناس ينظرون إلى ما كُتب عليهم ...

لا شيء ضاع، ولا كلمة نُسيت.

ثم يقولون في دهشة: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [سورة الكهف: آية ٤٩]

البصيرة هنا: أن ترى أثر الفعل قبل وقوع الجزاء.

■ ٣) يوم التغابن

هذا من أعمق الأسماء.

التغابن من الغُبن، أي الخسارة بعد ظن الربح.

هنا تتربى البصيرة على: أن ترى الخسارة قبل أن تفرح بالربح.

قد تظن أنك ربحت دنيا ... لكن تغابن الآخرة يكشف الحقيقة.

■ ٥) القارعة

ليست وصفًا لليوم فقط، بل أثره على القلب.

القرع صوت يهزّ.

القرآن يقرع قلبك قبل أن تقرع القيامة الكون.

البصيرة هنا: أن تستيقظ قبل أن تُوقَظ بالقوة.

۞ ثالثًا: المنهج القرآني في التربية

القرآن لا يكرر الحدث ... بل يغير زاوية النظر.

المشهد واحد. لكن العدسات متعددة.

مرة يربيك على الخوف.

مرة على العدل.

مرة على الخسارة.

مرة على اليقين.

وهكذا تنمو البصيرة تدريجيًا.

لأن البصيرة ليست صدمة واحدة، بل إعادة تشكيل مستمر.

الخلاصة

القرآن لا يريدك أن تعرف أن هناك يومًا قادمًا.

يريدك أن تراه من كل زاوية ... حتى يصير حاضرًا في قرارك اليومي

وهنا نعود للسؤال الذي بدأنا به وهو: كيف يربّي القرآن البصيرة عمليًا؟

■ ١) بكثرة المشاهد الأخروية

ثم ننتقل للنقطة الثانية:

■ ٢) التأمل في القسم القرآني وجوابه

من أعظم ما يفتح للإنسان أبواب البصيرة أن يتأمل طريقة القرآن في عرض الحقائق.

فالقرآن لا يكتفي بذكر المعنى، بل يهيّئ القلب له ويوقظه إليه.

ومن أبلغ هذه الأساليب القسم في القرآن؛ إذ يقسم الله سبحانه

بمخلوقات عظيمة: بالشمس، والليل، والضحى، والعصر ... ثم يأتي بعد ذلك جواب القسم ليقرر حقيقة يريد الله أن تستقر في القلب.

فالتأمل في القسم القرآني ليس مجرد وقوف عند صيغة بلاغية، بل هو باب من أبواب البصيرة؛ لأن القسم يلفت النظر، ويوقظ القلب، ثم يقود الإنسان إلى المعنى الذي يريد القرآن أن يرسّخه.

ولهذا فإن من تدبر العلاقة بين القسم وجوابه انكشفت له معانٍ دقيقة، ورأى كيف يقود القرآن القلوب خطوة خطوة حتى تبصر الحق بوضوح

■ **ودعونا نأخذ مثال على القسم وجوابه:**

* ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ [سورة العاديات: الآيات ١-٥]

قبل أن يتكلم عن الإنسان ... يعرض أمامك خيلًا تعدو ... تضبح ...

تقدح النار من حوافرها ... تقتحم الصفوف ...

مشهد قوة. مشهد وفاء. مشهد اندفاع بلا تردد.

لماذا يبدأ هكذا؟

ماذا بعد هذا المشهد المهيب ...

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [سورة العاديات: آية ٦]

الكنود: الجحود. قلة الوفاء. نسيان الإحسان.

كأن السورة تقول:

انظر إلى الفرس ... يخلص لصاحبه، يخاطر بحياته لأجل من يطعمه.

وأنت؟ ربك خلقك، رزقك، ستر عليك ... ثم تجحد؟

هنا تولد البصيرة.

القرآن لا يقول: كن وفيًا.

بل يجعلك ترى الوفاء في مخلوقٍ بهيمي ... ثم يضعك أمام نفسك.

البصيرة هنا ليست أمرًا ... بل مرآة.

القسم هنا لم يكن لتأكيد خبر ...

بل لبناء مقارنة تهز القلب:

- الخيل أوفت بصاحبها في معركة فانية ... فهل نوفي ربنا في معركة الشهوات؟
- الخيل اقتحمت الجمع ... فهل نقتحم نحن هوى النفس؟
- إذا كانت البهيمة تعرف الوفاء، فما عذر من يعرف ربه؟

۞ وهنا نعود للسؤال الذي بدأنا به وهو: كيف يربّي القرآن البصيرة عمليًا؟

■ ١) بكثرة المشاهد الأخروية

■ ٢) التأمل في القسم القرآني وجوابه

والآن ننتقل للنقطة الثالثة:

■ ٣) التأمل في المثل القرآني

من أعظم ما يفتح الله به أبواب البصيرة للقلوب الأمثال التي يضربها القرآن.

فالحقائق قد تُذكر أحيانًا في صورة معانٍ مجردة، لكن حين يحوّلها القرآن إلى مشهد محسوس تصبح كأنها تُرى بالعين.

ولهذا يكثر في القرآن قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾، لأن المثل يقرب المعنى، ويكشف الحقيقة، ويجعل الإنسان يرى ما كان خفيًّا عليه.

فالمثل القرآني ليس مجرد أسلوب بلاغي، بل هو أداة من أدوات البصيرة؛ إذ يحوّل المعاني إلى صور حية، فيبصر القلب بها الحقائق التي قد تعجز الكلمات المجردة عن إظهارها.

ولهـذا فإن التأمـل في الأمثال القرآنية يفتح للإنسـان بابًا واسـعًا من أبواب الفهم، ويريه كيف يخاطب القرآن العقل والقلب معًا حتى تتكون البصيرة

ودعونا نأخذ مثلا من الأمثال:

دعوةُ الحق ... أم بسطٌ إلى سراب؟

قـال الله تعالـى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ [سورة الرعد: آية ١٤].

المشهد الأول: عطشان ... لا يقترب

رجلٌ في صحراء ... يرى ماءً بعيدًا ... يمدّ كفّيه من مكانه ... ينتظر أن يأتيه الماء!

لا يسير إليه ... لا يغترف ...

فقط يبسط يديه ... وكأن الماء سيصعد إلى فمه!

أيصل الماء إلى فمه هكذا؟

هذا المعنى ذكره مجاهد بن جبر قال: كالظمآن يدعو الماء من بعيد فلا يأتيه.

هنا الخلل في الطريق ... طلبٌ بلا مسلكٍ موصل.

المشهد الثاني: لمعانٌ خادع

يقف رجل عند ماء صافٍ كمرآة ... يرى لمعانًا ... صورةً ...

يظن أن في الماء شيئًا يمكن أن يُمسك ... يمدّ يده ...

فتضطرب الصورة وتختفي.

لم يكن شيئًا أصلًا ... كان انعكاسًا.

كم من مرة رأى الإنسان في غير الله نفعًا؟

فلما جاءت ساعة الحقيقة ... تلاشى كل شيء؟

ونُقل هذا المعنى عن عبد الله بن عباس

أنه كالظمآن يرى خياله في الماء فيظنه شيئًا.

هنا الخلل في التصوّر ... وهمٌ ظُنّ حقيقة.

المشهد الثالث: قبضٌ لا يُمسك

ينحني رجل على جدول ماء ... يقبض بكفّيه ... يرفعهما ليشرب ... فلا يبقى في يده شيء.

الماء بطبيعته لا يُمسك هكذا.

أيمكن أن تثبت السيولة في قبضة يد؟

أم أن بعض الأشياء لا تعطي مهما ألححت؟

وذكر هذا الوجه الماوردي

أن القابض الماء بيده لا يحصل منه على شيء.

هنا الخلل في طبيعة المطلوب نفسه.

■ الحقيقة الجامعة

ثلاثة أوجه ذكرها أهل التفسير ... لكنها تعود إلى حقيقة واحدة:

من دعا غير الله

إما أنه سلك طريقًا لا يوصل، أو توهّم وجودًا لا حقيقة له،

أو تعلّق بشيءٍ لا يملك أن يعطيه.

وفي كل الأحوال ... ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾.

أما دعوة الحق ...

فليست بسطًا إلى سراب، ولا قبضًا على وهم، ولا انتظارًا لشيءٍ لن يأتي.

بل توجهٌ إلى قريب ... سميع ... قدير ... يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [سورة غافر: آية ٦٠].

سؤال يهزّ القلب

حين تضيق بك الحياة ... إلى أين تمتدّ كفّاك؟

موضع البصيرة في هذا المثل

البصيرة هنا ليست أن تعرف "أن الله هو الحق".

بل أن ترى عجز ما سواه قبل أن تتعلّق به.

أن يسبق قلبُك الخيبة ... فلا يحتاج أن يتعلمها بالانكسار

■ ٤) معرفة السنن الإلهية

كيف يربي القرآن البصيرة عمليًا عبر السنن؟

القرآن لا يقدّم الأحداث كوقائع معزولة ... بل يربطها بقوانين ثابتة.

والذي لا يعرف السنن ... تُفاجئه الحياة.

والذي يعرف السنن ... تثبت قدمه عند الصدمة.

أولاً: ما المقصود بالسنن؟

السنن هي القوانين الإلهية الجارية في الناس والأحداث:

سنة الابتلاء.

سنة التداول.

سنة الإملاء.

سنة الاستدراج.

سنة العاقبة للمتقين

سنة الأخذ بعد الإنذار

هي قوانين لا تحابي أحدًا.

قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾ [سورة فاطر: آية ٤٣]

هذه ليست مواعظ ... هذه أنظمة.

المثال الأول: سنة الابتلاء

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾

[سورة العنكبوت: آية ٢]

الذي لا يعرف هذه السنة، إذا ابتُلي ... قال: لماذا أنا؟

الذي يعرفها يقول: هذا طريق الإيمان.

البصيرة هنا لا تزيل الألم ... لكنها تزيل الاستغراب.

وهذا فرقٌ هائل في الثبات.

المثال الثاني: سنة الإملاء

قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [سورة القلم: آية ٤٥]

كم من إنسان يرى الظالم يزداد قوة ... فيضطرب قلبه.

لكن البصير يعرف:

الإملاء ليس رضا.

والتمكين المؤقت ليس نجاة.

عدم فهم هذه السنة يولّد الشك.

فهمها يولّد الطمأنينة.

المثال الثالث: سنة التداول

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٤٠]

نصر ... هزيمة ... عز ... ضعف ... ليست فوضى.

هي حركة ضمن نظام.

البصيرة ترى "الموجة"

ولا تحكم على البحر من لحظة.

■ ماذا تفعل السنن في القلب؟

١. تمنع الانهيار عند المفاجآت.

٢. تمنع الغرور عند النصر.

٣. تمنع اليأس عند التأخر.

الجاهل بالسنن يعيش ردّ فعل.

البصير يعيش فهمًا.

■ لماذا السنن تصنع البصيرة؟

لأنها تنقل الإنسان من: «لماذا حدث هذا؟» إلى: «هذه سنة جارية.»

ومن: «الأمر فوضى» إلى: «الأمر ضمن حكمة».

■ عبارة جامعة

الذي لا يعرف سنن الله يقرأ الحدث والبصير يقرأ ما وراء الحدث

نلخص ما سبق: السؤال الذي بدأنا به وهو: كيف يربّي القرآن البصيرة عمليًا؟

١. كثرة المشاهد الأخروية.

٢. التأمل في القسم القرآني وجوابه.

٣. التأمل في المثل القرآني

٤. معرفة السنن الإلهية

المحطة الثالثة

مراتب البصيرة الثلاث ... وكيف تغيّر حياتك فعليًا

أيها الكرام:

السير إلى الله لا يحتاج قوة فقط بل يحتاج رؤية

والرؤية تكون لثلاثة أشياء:

١. أن تعرف من تسير إليه

٢. أن تعرف ما ينتظرك

٣. أن تعرف كيف تسير

وهذه ه مراتب البصيرة

ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن البصيرة ثلاث مراتب، ومن استكملها استكمل البصيرة:

١. بصيرة بالله.

٢. بصيرة بالأمر والنهي.

٣. بصيرة بالوعد والوعيد

دعونا نسأل: ماذا يتغير في حياتك إذا اكتملت هذه الثلاث؟

١) بصيرة في الأسماء والصفات

دعونـا نقدم بمقدمة (وهـي أول بصيرة في هذا الباب): أول ما طُلب منا ... أن نعرف ربنا

وأنا دائمًا ما أسـأل الشـباب وأقول لو طلب منـك منهجية في طلب العلم والدعوة لكن من القرآن.

فكيف يبصرنا القرآن بأولويات العلم والدعوة؟

وهنا سؤال: ما أول كلمة نزلت؟

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [سورة العلق: آية ١]

لم يقل: اقرأ الكون.

لم يقل: اقرأ نفسك.

قال: اقرأ باسم ربك.

كأن أول مفتاح للعلم: معرفة الرب.

ثم مباشرة: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ [سورة العلق: آية ٢]

أول تعريف للإنسان ... أنه مخلوق.

وأول تعريف لله ... أنه الخالق.

هذه بذرة البصيرة الأولى.

ثم تأتي مرحلة الدعوة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنذِرْ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣﴾ [سورة المدثر: الآيات ١-٣]

تأملوا:

لم يبدأ بالأحكام. بل بدأ بتعظيم الرب.

لأن من لم يكبر الله في قلبه ... لن ينقاد لأمره.

ثم انظر إلى سورة الحشر

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾

[سورة الحشر: آية ٢١]

ثم مباشرة:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ...﴾ [سورة الحشر: آية ٢٢]

كأن القرآن يقول: أول مقصد من مقاصد إنزال القرآن هو التعرف على الله يأسمائه الحسنى

ماذا نستنتج؟

أن معرفة الله: ليست بابًا من أبواب العلم.

بل هي أصل كل باب.

قبل الإنذار: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

قبل القراءة: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾.

لذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أن يشهد قلبك الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مستويـاً على عرشـه متكلمـاً بأمره ونهيه بصيراً بحركات العالم علويه وسفليه .. سميعـاً لأصواتهم رقيبـاً على ضمائرهم وأسرارهم وأمر الممالك تحت تدبيره) .

إذا صحت هذه البصيرة:

* لن تنهار عند البلاء، لأنك ترى الحكمة.
* لن تحسد عند التفاوت، لأنك ترى العدل.
* لن تتكبر عند الهداية، لأنك ترى المنة.

مثال يفتح البصيرة من خلال اسم القدير ودليل القدرة

القصة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [سورة البقرة: آية ٢٥٩]

لماذا هذا المثال يفتح البصيرة؟

لأن الرجل لم يُنكر القدرة، بل استشكل الكيفية: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ﴾

والبصيرة لا تُبنى بالجواب النظري ... بل بالمشاهدة.

فجاءت التربية عبر أربعة مشاهد عظيمة كما ذكرت - ويمكن ترتيبها هكذا:

١) قدرة على عدم جريان مقادير الزمان للإنسان

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾

الجسد يتحلل عادةً، والذاكرة تضمحل، والآثار تزول.

لكن الله أماته ... ثم أعاده كما كان.

القدرة هنا ليست خلقًا أوليًا فقط، بل تحكمًا في الزمن.

حتى قيل: إن الله أعاده إلى قريته شابـًا كما كان فوجد أولاده وأولاد أولاده شيوخـًا وعجائز.

٢) قدرة على حفظ ما يفسد بطبعه

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾

الطعام أسرع الأشياء فسادًا.

مئة عام ... ولا يتغير.

هنا القدرة تتحدى السنن المعتادة.

٣) قدرة على إجراء السنن في موضع آخر

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾

الطعام لم يتغير لكن الحمار تحلل.

كأن الله يقول: أنا القادر على حفظ الشيء من سننه، وأنا القادر على إجرائها عليه.

٤) قدرة الإحياء أمام العين

﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا﴾

ليس مجرد بعث بل عرضٌ تدريجي.

عظام ... قيام ... كسوة لحم.

حتى يصل إلى اليقين: ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

لاحظ: لم يقل "أؤمن".

قال: "أعلم".

انتقل من سؤالٍ عقلي إلى علمٍ مشهود.

هذه الآية تظهر رؤية القدرة في:

الزمن المادة الحياة الموت السنن خرق السنن

وهذا يعالج أعظم قلق عند الإنسان: الخوف من المستقبل.

لذلك نسأل أنفسنا:

* ما الذي تخاف منه اليوم؟
* رزق؟ مرض؟ مستقبل؟ ظلم؟
* الذي أمات مئة عام وأعاد ... أيعجز عن شأنك؟

هنا تتحول القصة من تاريخ ... إلى طمأنينة

ولهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالبصيرة في الأسماء والصفات: ألا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله، بل تكون الشبه المعارضة لذلك عنده بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله، فكلاهما سواء في البطلان عند أهل البصائر".

ومعنى هذا الكلام يا أحبة أن صاحب البصيرة لا يتلقى هذا الباب بعقلٍ مضطرب أو نظرٍ متردد، بل يعلم أن صفات الله مبنية على الكمال المطلق؛ فإذا استقر هذا الأصل في القلب انكشفت له كثير من الإشكالات.

ولهـذا قـرر أهل العلـم قواعد تضبط هـذا الباب وتعيـن على ثبات البصيرة، ومن أجمعها ثلاث قواعد:

* **الأولـى: كلُّ صفةِ كمالٍ لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه فاللهُ أولى بها وأحقّ.**

فالله سبحانه أعلم، وأقدر، وأرحم.

* **الثانية: كلُّ صفةِ نقصٍ فاللهُ منزَّهٌ عنها.**

فهو سبحانه منزه عن الظلم والجهل والعجز.

* **الثالثة: كلُّ صفةٍ يكون كمالها في المخلوق متضمّنًا حاجةً أو نقصًا فاللهُ منزَّهٌ عنها كذلك؛**

كالنوم والأكل، فإنها قد تكون مناسبة للمخلوق لحاجته وضعفه، لكن كمال الله في تنزهه عنها.

فإذا استقرت هذه المعاني في القلب أصبحت الشبه المثارة في هذا البـاب ضعيفة لا تزعـزع الإيمان؛ لأن نور البصيرة صار أوضح من كل شبهة، ولأن القلب صار ينظر إلى صفات الله من خلال كماله المطلق لا من خلال قياسه على المخلوقين

۞ ٢) بصيرة في الأمر والنهي

قــال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (تجريـده عن المعارضة بتأويـل أو تقليد أو هوى).

أي ألا يقوم في قلبك:

شبهة تعارض النص ولا شهوة تمنع التنفيذ

كثير من الناس يعرف الحكم، لكن قلبه يناقشه.

البصيرة هنا أن ترى الأمر رحمة، والنهي حماية.

■ من الصور المعاصرة لمعارضة الأمر والنهي

غالبًا كل انحراف في باب الأمر والنهي لا يخرج عن ثلاث علل:

١/ ضعف تعظيم النص.

أو ٢/ تقديم العقل على الوحي.

أو ٣/ تقديم المقصد المتوهَّم على الحكم المنصوص

مثلاً:

١) الاكتفاء بالقرآن دون السنة

تجد بعضهم يقول: "حسبنا كتاب الله".

ويستدل بآيات مثل:

* ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: آية ٣٨]

* ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل: آية ٨٩]

لكن البصيرة ترى أن القرآن نفسه أحال البيان إلى الرسول: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [سورة النحل: آية ٤٤]

فالوحي وحدة واحدة.

ومن فصل بين الكتاب والبيان فقد أخذ بعض الطريق وترك بعضه.

وهنا تستحضر الحديث النبوي التحذيري:

«لا ألفَيَنَّ أحدَكم مُتكئًا على أريكتِهِ يأتيه الأمرُ من أمرِي مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه فيقولُ: لا ندرِي، ما وجدنا في كتابِ اللهِ اتَّبعناه»(١)

صورة "المتكئ" ليست وصفًا جسديًا، بل حالة قلبية: راحةٌ أمام التكليف.

٢) هذا لا يقبله العقل

يقول بعضهم: "هذا الحكم لا ينسجم مع العقل".

لكن أي عقل؟

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجة (١٣) واللفظ لهم.

فالقاعدة: (العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح).

الله الذي أنزل الحكم هو الذي خلق العقل.

الخلل غالبًا ليس في العقل، بل في تصوّرٍ لم يكتمل، أو في فهمٍ لم ينضج، أو في هوى لبس ثوب التعقّل.

قال تعالى في امتحان القبلة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ [سورة البقرة: آية ١٤٢]

السؤال كان عقلانيًّا في ظاهره، لكن القضية كانت:

هل تتبع أم تحتكم إلى ذوقك؟

البصيرة هنا أن تفرّق بين: عدم الفهم ومعارضة التشريع.

٣) نتمسك بروح الشريعة

وهذه من ألطف الشبهات وأخطرها.

يُقال: "المقصد رحمة." "المقصد عدل." "المقصد تسامح."

لكن من الذي عرّف هذه المفاهيم؟

الوحي.

المقاصد لا تُستخرج خارج النص، بل تُستنبط منه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [سورة الحشر: آية ٧]

فالروح لا تُحفظ بإلغاء الجسد.

ومن استعمل المقصد لإلغاء الحكم فقد قدّم تصوره على النص.

۞ الخلاصة الجامعة:

هـذه الصـور الثلاث ليسـت خلافـات فكريـة فقط، بـل اختبارات للبصيرة في الأمر والنهي.

* هـل أتعامل مـع النص كمصـدر هدايـة؟ أم كمادة قابلـة لإعادة الصياغة؟
* هل أبحث عن الامتثال؟ أم أبحث عن مخرج؟

٤) بصيرة في الوعد والوعيد

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إن الشك في الوعد والوعيد شك في ربوبيته).

لماذا؟ لأن من خلق وأمر، لا يترك الخلق سدى.

هذه البصيرة تجعل الآخرة قريبة، وليست فكرة مؤجلة.

ولهذا كان الصحابة إذا ذُكّروا بالنار والجنة كأنهم يرون.

تأملوا هذا الحديث العجيب

عَـنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْـعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهُوَ يَمْشِـي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْـفَعُهُ النَّارُ مَـرَّةً، فَـإِذَا مَا جَاوَزَهَـا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَـالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِـي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

فَتُرْفَـعُ لَهُ شَـجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّـجَرَةِ أَسْـتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا.

فَيَقُولُ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟

فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ. وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ.

فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا.

ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَـجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا.

فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟

فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟

فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ.

فَيُدْنِيهِ مِنْهَا.

ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا.

فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟

فَيَقُولُ: بَلَى يَا رَبِّ، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا.

فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أُدْنِيَ مِنْهَا، سَمِعَ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِيهَا.

فَيَقُولُ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَا يَصْرِفُنِي عَنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟

فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟

قَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟

قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ: مِنْ ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْخَرُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْخَرُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَدِيرٌ».

(رواه مسلم)

الآن ... لنفتح المشهد بصريًا

أولًا: مشهد الوعيد

"يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار"

ليس خروجًا سهلاً.

تعثر ... احتراق ... إعياء.

حتى إذا جاوزها ... "التفت إليها"

الالتفات هنا مشهد عجيب.

إنسان خرج لتوّه من النار، ومع ذلك يقف ... ينظر ...

كأنّه لا يصدق النجاة.

ثم يقول: "تبارك الذي نجاني منك"

لاحظ التعبير: لم يقل: نجاني الله فقط.

بل نسب النجاة إلى الله ذو البركة والعظمة.

هنا البصيرة تشتعل: النجاة وحدها نعمة عظيمة.

ثانيًا: بداية الوعد

يقول: "لقد أعطاني الله ما لم يعطه أحدًا من العالمين"

لماذا قال ذلك؟

لأنه خرج من النار. ومن ذاق الاحتراق يرى النجاة أعظم عطاء.

وهنا درس: من عاش قريبًا من الوعيد عظّم الوعد.

ثالثًا: تصاعد الرجاء

ثم تبدأ قصة الشجرة الأولى ... ثم الثانية ... ثم الثالثة ...

وفي كل مرة يعاهد ربه ألا يسأل غيرها ... ثم يسأل.

وهنا تظهر إنسانيتنا.

الله يعلم ضعفه ... ومع ذلك يعطيه. (وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ)

هذا ليس وعدًا فقط، بل لطف.

رابعًا: دخول الجنة

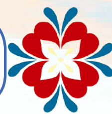
حين يدخل الجنة

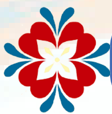
ويُقال له: تمنَّ.

ثم يُعطى مثل الدنيا وعشرة أمثالها.

آخر أهل الجنة دخولًا وأدناهم منزلة يُعطى هذا.

فكيف بأهل السبق؟





كيف بأهل القيام في الليل؟

كيف بأهل الدموع الصادقة؟

■ السؤال لنا؟

أتريد أن تكون هذا الرجل؟

آخر الداخلين؟ أم من السابقين؟

الخلاصة

من رأى النار بقلبه عظّم الجنة.

ومن عظّم الجنة هانت عليه الدنيا.

صورة جامعة لمراتب البصيرة

تخيّل إنسانًا: يرى الله حاضرًا في قلبه. يرى النص نورًا لا قيدًا. يرى الآخرة أمام عينيه.

* كيف سيكون قراره؟
* كيف سيكون هدوؤه؟
* كيف ستكون فطنته؟



المحطة الرابعة

ثمار البصيرة في الواقع ... حين يهدأ القلب ويثبت الميزان

بعد أن رأينا مراتب البصيرة الثلاث، يبقى السؤال الأهم:

ماذا يحدث فعليًا لمن أُوتي البصيرة؟

ليس المطلوب أن يعرف أكثر ... بل أن يضطرب أقل.

١) زوال الحيرة

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعضهم: البصيرة ما خلَّصك من الحيرة، إما بإيمان وإما بعيان».

فمن أعظم ثمار البصيرة زوال الحيرة عن القلب؛ لأن القلب إذا امتلأ بنور الوحي انكشف له الطريق. ولهذا وصف الله صاحب الهداية بقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٢٢].

فالبصيرة حياة للقلب بعد موته، ونور يهدي صاحبه في طريقه، حتى يمشي بين الناس وهو يرى الطريق واضحًا، بينما غيره يتخبط في الظلمات.

فحيث وُجد نور الوحي زالت الحيرة، وحيث غاب هذا النور بقي الإنسان يتقلب في ظلمات الشبهات والآراء.

لذلك صاحب البصيرة يرى:

الهداية فضلًا والضلال عدلًا والتفاوت حكمة والابتلاء تربية

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [سورة الأنعام: آية ١٠٤]

البصائر موجودة، لكن الإبصار يحتاج قلبًا حيًا.

٢) الطمأنينة في قلب العاصفة

ليست البصيرة أن تعيش في أوقات الهدوء.

الهدوء لا يكشف القلوب.

البصيرة تُختبر حين: تضيق الطرق تتكاثر الأخطار

وهنا يظهر الفرق بين من يحفظ النص ... ومن يرى الله.

■ لذلك تأملوا مشهد الغار

قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [سورة التوبة: آية ٤٠]

العاصفة هنا حقيقية: مطاردة وتهديد وأقدام عند الباب لحظة فاصلة ومع ذلك ... ﴿لَا تَحْزَنْ﴾.

ليس لأن الخطر غير موجود، بل لأن المعية أكبر من الخطر.

■ أين الثمرة؟

البصيرة لم تُلغِ الخوف الطبيعي، لكنها منعت انهيار القلب.

أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رأى الأقدام والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى المعية.

البصيرة تعيد ترتيب المشهد: الخطر موجود ... لكن الله أكبر.

■ لماذا هذه ثمرة عظيمة؟

لأن العواصف لا تتوقف في حياتنا: مرض فقد حرب فتنة فكرية ضيق رزق

الذي لا يملك بصيرة تجرفه العاصفة.

والذي يملكها يقف ثابتًا وإن اهتزّ كل شيء.

■ الخلاصة:

قد لا تتوقف العواصف في حياتك، لكن يمكن أن يتوقف الاضطراب داخلك.

۞ ٣) تفجّر الفهم

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن من ثمار البصيرة (أن تتفجر من قلب صاحبها ينابيع المعارف التي لا تنال بكسب فقط).

لذلك من الأدعية النبوية: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِكَ؛ إنَّكَ تَهْدِي مَن تَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[(١)]

وقد ذكر العلماء - ومنهم ابن القيم - أن تخصيص هؤلاء الملائكة الثلاثة فيه إشارة لطيفة.

■ ١) جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

هو ملك الوحي.

والوحي به حياة القلوب؛ لأن به الهداية والعلم واليقين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [سورة الشورى: آية ٥٢].

فسُمِّي الوحي روحًا؛ لأنه يحيي القلوب.

---

(١) صحيح مسلم (٧٧٠).

■ ٢) **ميكائيل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

موكَّل بالقطر والنبات.

والمطر به حياة الأرض.

فالأرض الميتة تحيا بالمطر، كما تحيا القلوب بالوحي.

■ ٣) **إسرافيل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

موكَّل بالنفخ في الصور.

وبنفخته تكون حياة الأجساد بعد الموت يوم القيامة.

كأن هذا الدعاء يجمع أنواع الحياة الثلاثة:

حياة القلوب ← بالوحي (جبريل)

حياة الأرض ← بالمطر (ميكائيل)

حياة الأجساد ← بالنفخة (إسرافيل)

ولهذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستفتح دعاءه بذكر رب هؤلاء الملائكة؛ كأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: يا رب الذي بيده مفاتيح الحياة كلها ... أحيِ قلبي بالهداية إلى الحق.

وهذا يتصل اتصالًا جميلًا بموضوعنا؛ لأن البصيرة في حقيقتها حياة للقلب.

ومن القصص التي تذكر في مناقب الإمام الشافعي

قصة مبيت الإمام الشافعي عند الإمام أحمد، ويُستأنس بها في معنى "تفجّر الفهم"

القصة المشهورة أن محمد بن إدريس الشافعي نزل ضيفًا عند أحمد بن حنبل، ففرشت له ابنة الإمام أحمد فراشًا، فلما أصبح قالت لأبيها: "يا أبتِ، هذا الشافعي الذي تذكره؟! لقد باتَّ عندنا، فلم يقم ليلًا، ولم أسمع له قرآنًا، وأكل كثيرًا!"

فلما أصبح أحمد سأل الشافعي، فتبسم الشافعي وقال: "أما قيامي الليل، فإني كنتُ أتفكّر في آية من كتاب الله، فاستنبطتُ منها كذا وكذا مسألة ..."

وفي بعض الروايات: "استخرجتُ منها ستين مسألة".

وهنا بيت الدرس:

البصيرة لا تُقاس بكثرة الحركة الظاهرة، بل بعمق الحركة القلبية.

قد ترى إنسانًا ساكنًا ... وقلبه يعمل عملًا عظيمًا.

هنا يظهر التفجّر الحقيقي للفهم

البصيرة تجعل:

* الآية الواحدة: بحرًا
* المعنى الواحد: شبكة مترابطة.
* النص القصير: أفقًا واسعًا.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [سورة ص: آية ٢٩]

البركة هنا ليست في عدد الصفحات، بل في عمق التدبر.

٤) الفِراسة الصادقة

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «البصيرة تنبِت في أرض القلب الفراسة الصادقة»

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ [سورة الحجر: آية ٧٥]

قال مجاهد: للمتفرسين.

الفراسة ليست حدسًا نفسيًا، بل نور يميّز به القلب بين:

صدق وكذب حق وباطل إخلاص ورياء

صاحب البصيرة لا يُخدع بسهولة، لأنه يرى ما وراء الظاهر.

لذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [سورة الأنفال: آية ٢٩]

الفرقان هنا ليس مجرد معرفة الحكم، بل قدرة على التمييز الدقيق.

أن ترى الفارق بين:

الحق المموَّه والحق الصريح

الصادق والمتكلّف

الطريق السليم والطريق الملتبس

ويشهد لذلك الحديث

قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يَعْرِفُونَ النَّاسَ بِالتَّوَسُّمِ**»(١)

التوسّم هو النظر المتأمل النافذ، ليس نظرة عابرة، بل قراءة بنور.

ومن الأمثلة: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ كانت لا تخطئ له فراسة

يقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: كان يقول شيخ الإسلام: (إنني أعرف عنكم إذا دخلتم علي أشياء لا أريد أن أحدثكم بها)، قلت له: ولماذا؟

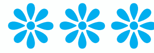
قال: لو حدثتكم بها لما صبرتم علي جمعة وقيل شهراً.

---

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) (٢٩٣٥)، وأبو نعيم في (الطب النبوي) (٦٧)، والقضاعي في (مسند الشهاب) (١٠٠٥) واللفظ لهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فألححت عليه يوم من الأيام إلا أن يخبرني عن نفسي وقلت له سأتحمل

فوالله لقد أخبرني عن أشياء في نفسي لم أحدث بها مخلوقًا قال: كيف عرفت يا شيخ الإسلام قال: من قرائن في وجهك.



المحطة الخامسة

كيف نُربّي البصيرة عمليًا؟

قبل أن نذكر الوسائل، ينبغي أن نقرر أصلًا مهمًا:

البصيرة ليست مهارة ذهنية، ولا تمرينًا نفسيًا، ولا تحليلًا منطقيًا.

إنها كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (نور يقذفه الله في القلب).

لكن هذا النور له أسباب.

۞ ١) كثرة التعرّض للمشهد القرآني

قلنا إن القرآن يصنع البصيرة بالمشاهد.

فمن الطرق العملية لتربية البصيرة: كثرة التعرض للمشــهد القرآني.

والقرآن مليء بالمشاهد التي تكشف سنن الله في الناس، وتصور عواقب الحق والباطل، والنصر والهزيمة، والهدى والضلال.

ولهـذا من الجميل أن يربي الإنسـان نفسـه على عـادةٍ عظيمة: كلما أشـكل عليه أمرٌ في حياته الخاصة، أو في أحوال الأمة، رجع إلى القرآن، لا ليبحث عن آية توافق رأيه، بل ليتعرض لنور القرآن ومشـاهده، فيجد فيه ما يفتح له باب الفهم ويهديه إلى الميزان الصحيح.

فكلما أكثر الإنسان من النظر في هذه المشاهد القرآنية تكوَّنت في قلبه بصيرة، حتى يصبح القرآن عنده مرآة يرى بها الأحداث والوقائع على حقيقتها.

لذلك يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة يوسف: آية ١١١].

ويقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل: آية ٨٩].

٢) دوام التذكر

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [سورة الأعراف: آية ٢٠١]

لاحظ: لم يقل تعلّموا.

قال: تذكروا.

كأن البصيرة تُحجب بالغفلة، وتعود بالتذكر.

لذلك من الأمور التي تُربي البصيرة دوام الذكر وكثرته؛ لأن القلب إذا امتلأ بذكر الله صار أقرب إلى النور والهداية.

فالذكر ليس مجرد كلمات تُقال باللسان، بل هو حياة للقلب، وإذا

حيي القلب بالذكر صار أبصر بالحق وأبعد عن الاضطراب.

ولهذا كان من آثار كثرة الذكر أن يُسـدَّد الإنسان في فهمه ونظره؛ لأن الله يفتح لقلبه من النور ما لا يفتح لغيره.

۞ ٣) غض البصر

قـال ابـن القيم: (إن الجـزاء من جنس العمل فمن غـض بصره عما حـرم الله عَزَّوَجَلَّ عوضه الله تعالى من جنسـه ما هو خيرٌ منه فكما أمسـك نـور بصره عن المحرمات أطلق الله نـور بصيرته وقلبه فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله)

۞ ٤) صحبة المبصِرين

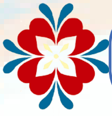
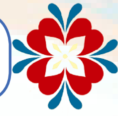
النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصنع البصيرة في أصحابه.

حيـن قال حنظلـة: حتى كأنّـا رأي عين ... وجود مـن يذكّرك يعيد إليك الرؤية.

صحبة الغافل تزيد الغفلة، وصحبة المبصر توقظ القلب.

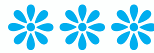
۞ ٥) الدعاء

إن كان النور يُقذف، فاسأل الذي يقذفه.

كان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وفي بَصَرِي نُورًا ...»[(١)]

النور يُطلب.



(١) صحيح البخاري (٦٣١٦)

ختاماً

البصيرة ليست ترفًا روحيًا. بل هي ضرورة حياة.

بدونهـا: نغضب في غير موضع غضـب. نحزن في غير موضع حزن. نغترّ في غير موضع أمان ونختار بلا رؤية.

ومعها: تـرى الله قبل الحدث. وترى الحكمة قبـل التفاوت. وترى الآخرة قبل القرار. وترى العدل قبل الاعتراض.

بعد هذه الرحلة في معنى البصيرة ...

علمنـا أن البصيرة ليسـت كثـرة معلومـات، ولا ثقافةً واسـعة، ولا حضورًا ذهنيًا فقط.

البصيـرة أن تزول الحيرة مـن قلبك، وأن تطمئـن في قلب العاصفة، وأن تتفجّـر المعاني في صـدرك، وأن يرزقك الله فرقانًـا تميّز به بين الحق والباطل.

لكن السؤال الآن ...

هل نريد أن نبقى متلقّين؟

أم نريد أن نصبح حَمَلة نور؟

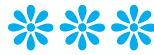
لأن الأمة لا تحتاج إلى جمهورٍ كبير، بل تحتاج إلى قلوبٍ مبصرة.

وهنا يحسن أن نستحضر كلمةً بديعةً للدكتور فريد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث قال: "إن نجاح المشروع الدعوي ليس رهينًا بعدد المتبعين، بقدر ما هو رهين بعدد المُبصرين والمُبصِّرين".

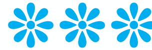
فكن من هؤلاء.

كن مبصرًا أولًا ... حتى تكون مُبصِّرًا.

والله إذا أضاء قلبًا واحدًا، أضاء به طريق أمة



الفهرس




التصميم الداخلي للكتاب
ثروت سلطان
Tharwat Sultan
للتواصل :
00201019530152
TharwatSultan@yahoo.com